عباس محمود العقاد والنقد الأدبي

د.بلال أحمد زرغر الندوي[1]

ملخص البحث:

كان عباس محمود العقاد رائدا من روّاد مدرسة التجديد الأدبي والفكري وإماما من أئمة النهضة الأدبية العربية الحديثة.والحق أنه كان من الأدباء الموسوعيين في تاريخ الأدب العربي المعاصر الذي قل ما نجد من ينافسه أو يساويه في معرفة الأدب والنقد والثقافة. كان أديبا مبدعا وشاعرا مثاليا وصحفيا ماهرا وفيلسوفا باهرا، كما كان مؤرخا أمينا وسياسيا كبيرا وناقدا بارعا.فهوفي العلم مثل البحر الزخار الذي تتلاطم فيه أمواج شتى وعصامي في تكوين شخصيته الأدبية وإغناء المكتبة العربية.تهدف هذه المقالة إلى دراسة شخصية عباس محمود العقاد وتكوين ثقافته وابرازمعالمه في الأدب والنقد مشيرا إلى تأثره بالأدب الغربي.

١ . محاضركلية الشهادة الحكومية، بيروة بدغام، كشمير، الهند

ولد عباس محمود العقّاد في مدينة أسوان بمصر سنة ١٨٨٩م من أب مصريّ وأم كرديّة الأصل. وكان أبوه يعمل موظّفا بسيطا في إدارة المحفوظات، ولكنه استطاع مع ذلك أن يدبّر شؤون أسرته لما عرف به من التدبير والنظام.التحق بالمدرسة الابتدائية فالثانوية، ومنذ حداثة عمره أبدى العقاد شخصيته القوية، وذكاءه الحاد، وحبا للمطالعة، وحرصا على مكانة مرموقة في العلم والمعرفة. ومما لا شك فيه أن العقاد لم يحصل إلا على الشهادة الإبتدائيبة، لكن في نفس الوقت كان مولعا بالمطالعة في شتى المجالات العلمية. وأنفق جلّ نقوده في شراء الكتب، ووهب حياته للعلم حتى بزّ أقرانه في الشعر والأدب والنقد والفلسفة وغيرها من العلوم. على الرغم من أن العقاد لم تتلمّذ على الأساتذة ولم يذهب إلى المدرسة بعد إتمام تعليمه الإبتدائي إلا أنه نال شهرة كبيرة بين معاصريه وذاع صيته في أنحاء المعمورة كلها في الأدب العربي. وأتقن اللغة الإنكليزية وأدبها. ومما يجدر بالذكر هنا أن العقّاد تأثر بالأدب الإنكليزي في شعره، وفي مبادئه الأدبية، وفي نقده، وتأثر فيه "بوليم هازلت"(William Hazlitt)الذي يعدّ إمام المدرسة الإنكليزية الحديثة في النقد، وأعجب بصراحته الجريئة[٢].

التحق العقّاد ببعض الوظائف الحكوميّة ردحا من الزمن، فعمل بمصنع الحرير في مدينة "دمياط" وعمل بالسكك الحديدية لأنه لم ينل من التعليم حظا وافرا. ما إن بلغ العقاد الرابعة عشرة من عمره حتى قدم القاهرة والتقى الدكتور يعقوب صرّوف و تأثّر بآرائه العلميّة، وبعد أن قضى مدة في الوظائف الحكوميّة ترك العقّاد الوظائف وانصرف إلى الصّحافة. أسّس العقّاد "مدرسة الديوان"بالتعاون مع ابراهيم عبد القادر المازني وعبد الرحمن الشكري. وكانت المدرسة هذه من مؤيدي النهضة الأدبية والتخلص من قالب التقليد التليد.

وممّا يجدر بالذكر أن هناك بونا شاسعا بين العقّاد وهازلت،على الرغم من أن العقاد لم يواصل دراسته الرسمية بعد الحصول على الشهادة الابتدائية إلا أنه قام ببناء شخصيته مستندا إلى عبقريته،وبذل قصارى جهده في القراءة الواسعة والثقافة الغزيرة حتى أخذ يتلألأ في الآفاق الأدبية. أما "هازلت" فهو قليل الإطلاع، ودائرة أفكاره ومعارفه محدودة وضيقة، ولكن الذي يميزه حقا هو استغلاله العقلي والمنطقي لما لديه

٢ حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي،الجزء الثاني،ص٣٠٠

من معلومات، كما يميزه صفاء ذوقه الأدبي وسعة خياله، وإرهاف حسه الفني، وشدة يقظته لأسرار الجمال، وهذا ما جعله من كبار نقاد الأدب في العالم.

إنّ العقاد يعدّ واحدا من الأدباء الذين ذاع صيتهم في القرن العشرين، فأقل ما يمكن أن يعبر عن أسلوبه في الكتابة بأنه يسلب الألباب، ويترك الناس في الحيرة والاستعجاب بقدرته على اللغة العربية وبتأثيرة على القلوب والأذهان. فالعقّاد مدرسة بحد ذاته، لا يمكن لأي إنسان أن يقترب منه بسهولة.والحق أن منزلة العقّاد في أدبنا المعاصر يساوي منزلة المتنبي في الأدب القديم على نحو ما نعرف من قول الدكتور محمد مندور:

"والعقاد من أولئك النفر القليل الذي يقال فيهم مثلما قيل في المتنبي: من أنه قد ملأ الدنيا وشغل الناس وأثار الصدمات والعداوات، وخاض المعارك في شجاعة وصلابة. وإن يكن عنف خصامه قد أرث له من العداوات ما أضعف من قوة تأثيره في عصره، وضيق من رقعة ذلك التأثير وبخاصة في خصوماته التي لا تقوم حول قضايا أدبية أو ثقافية، بل حول آراء أو مذاهب سياسية ... نرى من الخير أن نسقطها من حسابنا حتى لا يكون لها أي تاثير عند تقديرنا لمكانه هذا العملاق في تيارات النقد والأدب المعاصرين "[٣].

وكذلك الدليل الآخر الذي ينمّ عن منزلة العقاد الكبرى يعكس في كلمات الأستاذ محمد خليفة التونسي صاحب الكتاب "فصول من النقد عند العقاد" فيما يقول أنه من مريدي العقّاد ومتّبعيه الذين لا يعدلون به أحدا في الشرق والغرب[٤].

وصرح فيه الأستاذ الرافعي قائلا: "أما العقاد فإني أكرهه وأحترمه ... أكرمه لأنه شديد الاعتداد بنفسه، قليل في عنان، وأحترمه لأنه أديب التملك أداة الأدب، وباحث قد استكمل عدة البحث، قصر عمره وجهده على القراءة والكتابة فلا ينفك بين كتاب وقلم ... ومن آفة الذين يديمون النظر في كلام الناس أنهم يفقدون استقلال الفكر وابتكار القريحة وليس كذلك العقاد ... فإن رأيه لقوة عقله وسلامة طبعه،يظل متميزا عن رأي الكتاب مهيمنا عليه يؤيده أو يفنده ... ولكنه لا يسمح أن يذوب فيه أو يتأثر به"[٥]

---

٣ محمد مندور: النقد والنقاد المعاصرون،ص١٦٤

٤ المصدر السابق،ص ١٦٥

٥ الوكيل العوضي: العقاد وتجديد الشعر،ص٥٠

بجانب إلى الموهبة الأدبيّة الفذة وصاحب الفكرة النقية والمدرسة المتميّزة كان العقاد ناقدا بصيرا. ومهمته للنقد الأدبي جعله شامخا في مجال النقد وحاذقا في توظيف الأدب. ساهم في تطوير النقد الأدبي الحديث في مصر، وقدّم آراءه النقديّة القيّمة وتطبيقها على القطع الأدبيّة المختلفة. تناول العقّاد النقد الذي ساقته إليه أحوال بيئته، وإطلاعه على العالم الحديث، وغيرته على الأمة العربية وقضاياها. وقد يتفرع نقده، فكان منه السياسي والاجتماعي، وكان منه الفكري والأدبي. على الرغم من أنه لم يصنّف كتابه الخاص بموضوع النقد الأدبي ولكنذاع صيته كناقد بارع بتقديم مبادئه النقديّة المتناثرة في كثير من كتبه وفي جلّ مقالاته الصحيفة، ولا سيما "ابن الرومي" و"أبو نواس الحسن بن هاني" و"الديوان" و"رواية قمبيزفي الميزان" و"مطالعات في الكتب والحياة" و"ساعات بين الكتب" وغيرها. عندما نطالع العقّاد ناقدا فنجد أنه أخذ يكتب في مجال النقد منذ سنّة ١٩٠٧م في الصحف والمجلات الشهيرة آنذاك. ونشر باكورة نقده سنة ١٩١٢م في كتابه "خلاصة اليوميّة" فيما عبّر عن آراءه في الموضوعات النقدية بما فيها الشعر والألفاظ، والجمال والجلال، والكاتب والشاعر، وما إليها.

كان العقاد من النقاد الذين قاموا بالدعوة إلى النقد العلمي، بأنه كان يعتقد أن النقد العلمي يعتمد على الأدلة القاطعة والبراهين الواضحة عوضا عن الرجوع إلى الظن والوهم والحقيقة وهو يؤكد قائلا:"إننا منذ اليوم نحس أن غواية البدع السقيمة تنهزم سنة بعد سنة أمام حقائق العلم ودراسات الطبائع والأخلاق. فإذا انتهت كشوف القرن العشرين في هذا الباب بالتمييز بين فوضى الفن وقواعده فأنعم به من ختام لا تنقضى حسناته ومزاياه"[٦].

يرى العقاد في المنهج العلمي أنه اضطلع بدور هام في القضاء على الرفض المطلق أو التردد والشك الذي يخامر بعض الناقدين في قبول أو ردّ مما يعرض عليهم من مرويات أدبية أوتاريخية بسبب الامتزاج بين الصدق والكذب فيها أوبين الخرافة والواقع والحقيقة والخيال[٧].

ومن الأهمية بمكانأنّ العقاد أيضا قدم آراءه في القضايا الموضوعية النقدية التي

٦ عباس محمود العقاد: القرن العشرون ماكان وما سيكون،ص٢٢٧

٧ عباس محمود العقاد: اللغة الشاعرة،ص١٢٩

أصبحت محل البحث وموضع النقاش بين النقاد الجدد الذين اهتموابالأدب الجديد. وهذه القضايا الموضوعيّة تضم قضية الشكل والمضمون، وقضية الوحدة العضوية في القصيدة، وقضية الجمال الفني، وقضية الأصالة والسرقة في الأدب وما إلى ذلك. و قد تناول العقادقضية وحدة القصيدة على وجه التفصيل، ويرى أن الوحدة في القصيدة لازمة، ويجب أن تكون أبيات القصيدة متناسقة إلى حد أن تغيير الأبيات، من ناحية الترتيب، يؤدي إلى التخريب في جمالها الفني والتعرض للتفكك فيها لفظا ومعنا وفنا ٨، وبعبارة أخرى يعني العقاد بوحدة القصيدة وحدتها العضوية فلذلك أنه قام بتعييب الانفصالفي الأبيات التي يجعل القصيدة مجموعة مفككة من أبيات متفرقة ولا تؤلف بينها غير وحدة الوزن والقافية، وطبق العقاد هذا الميزان على قصيدة شوقي في رثاء مصطفى كامل وراح يزن به قصيدته المذكورة. فغيّر ترتيب الأبيات الهندسيّة وانتهى إلى أن هذه القصيدة " كالرمل المهيل لا يغير منه أن تجعل عالية سافلة أووسطه في قمته"[٩]

أمّا الجمال الفني فيرى فيه العقّاد أنّه لا يوجد في تنقية الكلمات أوزينة التراكيب أو استعمال الإستعارات والتشبيهات النادرة في الكلام، ولا يتعلق بوجود التناسب في قطعة أدبية ما، بل الجمال الفني هو إسم آخر للحرية التي هي عنصر ثان هام في فلسفة العقاد. وبالحرية يعني العقاد أنها تمكّن الأشياء من أداء وظيفتها بكل السهولة دون ضغط القوات الخارجية.وفي المجال الأدبي يعني به أن الأديب أو الشاعر يستطيع أن يعبر عما تختلج في قرار نفسه من العواطف وما تجول في ذهنه من الأفكار الرائعة بحرية كاملة دون الشعور بأية مشكلة أوعرقلة في سبيل التعبير عنها، ويجتنب من التزام الكلفة في كلماته وتعبيراته. بعبارة أخرى يعني العقاد بالجمال الفني أن يكون الأديب أو الشاعر حرا في التعبير، ويلقي العقاد ضوء عليه قائلا: "إن الوظيفة تخلق العضو هذه حقيقة مقررة، فالإنسان لا يمشي،لأن له قدمين، بل هوله قدمان، لأنه أراد أن يمشي، وهو لاينظر، لأن له عينين،بل هو ذو عينين، لأنه أراد أن ينظر، وهكذا قل في جميع الأعضاء والجوارح...فالجمال إذن هو الحرية،والجمال في الجسم الإنساني هو حرية وظائف الحياة فيه وسهولة مجراها،

٨ محمد مندور: النقد و النقاد المعاصرون، ص: ٩٠-٩١

٩ الديوان في الأدب و النقد، الجزء الثاني، ص: ٤٥

ومطاوعة أعضاء الجسم لأغراضها، وقيام هذه الأعضاء مقام الأدوات الملبية لكل إشارة من إشاراتها ".١٠

وكذلك أصبحت قضية اللفظ والمعنى نقطة النقاش بين نقاد الأدب العربي في عصري القديم والحديث على حد سواء، وقدموا آراءهم القيمة بهذا الصدد. أما العقاد فهو يلقي الضوء على أهمية الفكر والمعنى قائلا "أنه ليس من الممكن أن الأديب ذو رؤية واسعة يكون متعرضا للجمود الفكري ويكون مجردا من سرعة فهمه. ومما لا مرية في أن الأدباء كلهم يملكون الأفكار السامية ويمثلون في منتجاتهم الأدبية عصورهم تمثيلا صادقا" .[١١]

ثم يرى العقاد في المبالغة على أنها رمز من رموز انحطاط الفكر.وتحدث عن الجليل والجميل في هذه الكلمة: " إن الجميل كل ما حبب الحياة إلى النفس وأبدى منها الرجاء فيها. وبعث على الاغتباط بها، كالربيع والصباح والشباب والمناظر الرائعة، وأما الجليل، فهو كل ما حرك فيها الوحشة، وحجب عنها رونق الحياة كالشتاء والليل والعرم والقفار المخيفة".[١٢]

ثم هو يبين الفرق بين الكاتب والشاعر ويقول "أن الكاتب من تتجلى روحه جلية في كتابته، ويتميز معها منهجه، وموقفه، ومذهبه، وفكره الخاص. وأما الشاعر فهو ليس الذي يزن التفاعيل،أو يصوغ الكلام الفخم واللفظ الجزل أو يأتي بالمجازات الرائعة والتصويرات البعيدة فحسب، وإنما هو من يشعر ويشعر"[١٣]،

فما الشعر إلا التعبير الجميل عن الشعور الصادق. إن العقاد لم يقتصر على تقديم نظرياته النقدية فحسب بل قدمها تقديما تطبيقياأيضا. أما مجال التطبيق فقد شنّ العقّاد فيه هجوما عنيفا على أمير الشعراء " أحمد شوقي "، وجرّده من شاعريته وأصالته.وابتدأت المعركة النقدية بين العقاد والشوقي بعد نقد العقاد على بعض أبياته التي أنشدها في بطرس الغالي، واتّهمه بالغلو والتقليد الخاطئ، وأنه لا يعبر في شعره عن

١٠ العقاد: مطالعات في الكتب و الحياة، ص: ٢٥٩-٢٦٣
١١ العقاد: فصول في النقد، ص: ١٦٨
١٢ العقاد، عباس محمود: خلاصة اليوميّة، ص: ١٧
١٣ المصدر السابق، ص: ١٠٥

شعوره الصادق، بل يبكي بكاء أميره " بطرس الغالي " وقصره.وكذلك حين تناول العقاد قصيدة شوقي في رثاء مصطفى كاملقسم نقده إلى أربعة أقسام، وهي التفككوالإحالة والتقليد والولع بالأعراض دون الجواهر.

إن المقاييس التي ذكرها العقاد في كتابه " الديوان " حاكم عليها قصيدة شوقي " في رثاء مصطفى كامل " والعيوب التي ناقشها العقاد وفقا لشعرشوقي. عندما يتعمق القارئ في قراءة نقد العقاد على شعرشوقي فيتوصل إلى النتيجة أن شعرشوقي يحتمل العيوب فقط، ويتجرد من المحاسن الفنية والميزات الأدبية. ولكنّ النقاد لا يتفق مع نقد العقاد التطبيقي على شعرشوقي، بل أوضحوا المحاسن والمعايب في شعره، وكشفوا عن الأخطاء النقدية للعقاد التي اهتزت بها عرش شوقي وكادت تعصف بها. فعلى سبيل المثال، علّق محمد مندور على نقد العقاد في بيت من قصيدة شوقي " في رثاء مصطفى كامل " وقال: "ونخشى أن تذهب تلك الجواهر التي يدعوا إليها العقاد بجمال الكثير من روائع الشعر الغربي كما حاولت أن تذهب ببيت شوقي الجميل:

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق و ثوان

فالعقاد يأخذ عليه الجمع بين دقات الساعة ودقات القلب، ويرى في هذا التشبيه الحسي ولوعا بالأغراض دون الجواهر، وكأنه قد غفل أو تغافل عما في البيت من تصوير ناطق لفناء الحياة المتلاحق، وكأن كل دقة من دقات القلب تفنى جزاء من تلك الحياة كما تفنى دقات الساعة الزمن".[١٤]

أما الأسلوب الذي اختاره العقاد لنقد شوقي اتخذه أيضا في نقد الرافعي، وتوجد بعض آراء العقاد النقدية في كتابه " الفصول " الذي نشرسنة ١٩٣٢ م ويرى فيهأن جمال المعاني لا ينبع من الكلمات المنمقة أو الأخيلة المستعارة المتكلفة، ولكن جمالها توجد في ذاتها وفي أدائها لوظيفتها، وفيما تلزم به طبيعتها، وهذا ما عاب به المنفلوطي.[١٥]وكذلك ألقى العقاد ضوء على وجود الابتذال في التراكيب الأدبية ويرى فيه أنه في التراكيب لا في الكلمات، والتراكيب المبتذلة لا يكون لها وقع في النفس ولا أثر في الذهن، وكون الابتذال

١٤ الشعرالمصري بعد شوقي، الجزء الأول، ص: ١٦-١٧

١٥ مراجعات في الآداب و الفنون، ص: ١٨٤

يكون في الألفاظ هو بعض ما توهمه حافظ حين ترجم كتاب "البؤساء" و قد عابه العقاد.[١٦]ويرى العقاد أن هناك بونا شاسعا فيما بين الأسلوب الأدبي والأسلوب العلمي. أما الأسلوب الأدبي فهو لغة العاطفة ويعكس ما تختلج فى وجدان الأديب من العواطف والإحساسات،وأما الأسلوب العلمي فهو لغة العقل ويعبر عن الأفكار الرائعة التي تجول في الأذهان ولكن من الضروري أن يمتاز كلا الأسلوبين بالجلاء والوضوح .[١٧]

فقصارى الكلام أن العقاد كان رائدا من رواد النقاد للعصر الحديث، لأنه صاحب آراء ونظريات نقدية، ولمساهمته في مجال النقد أهمية كبرى في تاريخ النقد الأدبي الحديث بألآراء القيمة الحديثة. وبكلام محمد مندور "أن الأستاذ عباس محمود العقاد كان أقرب إلى النقد الأدبي واقتحم في صميمه في معاركه النقدية وفي دراساته الأدبية، وأن أثره ومفعوله الشديد المتين قد كان في المعارك الأدبية التي قادها، والدعوات التجديدية التي قام بدعوة إليها ... وهو فوق كل هذا ، وقبل كل هذا، علم من أعلام الفكر المعاصرين الذين يستثيرون دوما القارئ ويحملونه على مناقشته الرأي اذا استطاع" .[١٨].

المصادر والمراجع

١. تطور الأدب العربي الحديثفي مصر – الدكتور أحمد هيكل –دار المعارف، القاهرة
٢. خلاصة اليومية – عباس محمود العقاد – مطبعة الهلال، القاهرة -١٩١٢
٣. الديوان في الأدب والنقد –العقاد والمازني –القاهرة -١٩٢١
٤. العقاد والتجديد في الشعر– للعوضي الوكيل –القاهرة -١٩٦٢
٥. الفصول –عباس محمود العقاد –القاهرة -١٩٢٢
٦. فصول من النقد عند العقاد –محمد خليفة التونسي -القاهرة
٧. اللغة الشاعرة –عباس محمود للعقاد
٨. مع العقاد – شوقي ضيف – دار المعارف، القاهرة -١٩٨٨
٩. النقد والنقاد المعاصرون –محمد مندور –مكتبة نهضة، القاهرة – ١٩٦٢

١٦ الفصول، ص: ٦٠
١٧ المصدر السابق، ص: ٦٠
١٨ محمد مندور: النقد و النقاد المعاصرون، ص: ١٤٤-١٤٦